لبنان في رسائل نازك الملائكة

-الحلقة الاولى-

أعدتها للنشر إحسان الملائكة

ضهور الشوير ١/٧/١٩٤٩

عزيزتي احسان

هذه ثاني رسالة أبعث بها اليك، وكانت الاولى من بيروت، وتاريخها أمس، وكتبتها لغرض طمأنتكم على راحتي، لا للتعبير عن مشاعري، ووصف مشاهداتي خلال الرحلة التي طالت ثلاثاً وعشرين ساعة. وسأبدأ القصة من أولها، راجية ألا اثرثر طويلاً على عادتي في الرسائل!

عندما تحركت بنا سيارة "تيرن" من بغداد، ورأيتكم ترفعون أيديكم مودعين، شعرت بغصة في اعماقي لم تفارقني حتى بلغنا الفلوجة بسيارتنا المريحة، ثم وصلنا الرمادي، وانبسطت في طريقنا بحيرة الحبانية بمائها الازرق الجميل، بعد ذلك بساعة تعشينا، وهبط الليل العميق، وأشرق الهلال الطفل وراح يرمقنا بعينيه البريئتين، الا ان سلوك الهلال لم يكن على نحو ما اعتدنا في بغداد، فحين أطلت من النافذة أحدق في القفار قفز قلبي قفزتين ورسم علامة تعجب كبيرة في الهواء.

رأيت الهلال، على البعد، ساقطاً فوق الأرض!! ألا تصدقين؟! كان منظراً عجيباً نبّهت الزميلات اليه، فحدثت ضجة في السيارة وقالت: "أراكسي بدروسيان" انها خائفة من هذا المنظر الغريب فلا بد ان شيئا قد حدث في السماء فأسقط القمر على الارض على اننا خسرنا المنظر بسرعة، فنحن في الصحراء نرى الافق البعيد دون عائق، ولذلك بدأ الهلال وكأنه ساقط على الارض.

بلغنا الرطبة في منتصف الليل، وهي آخر نقطة عراقية قبل حدود سوريا فهبطنا وشربنا الشاي في كازينو هناك، وبعد ان ارتحلنا غادرنا المكان بالسيارة ودخلنا الصحراء برمالها ورياحها وجدبها وغبارها، فأغلقنا النوافذ اغلاقاً تاماً، ولبسنا المعاطف الصوفية وبقينا نرتجف فاستعملنا البطانيات، فالتفت كل واحد منا بها ثم نام الكل ما عدا أختك التي وجدت في فكرة عبورها الصحراء أول مرة شيئاً يستأهل السهر وخفقان القلب من شدة الحماس.. بادية الشام هذه الارض الماحلة الجدباء التي تنعدم فيها الحياة ويحكمها الصمت والنسيان، كانت السيارة تسير وانا في سورة من الشعر. وكان هناك بيت واحد من الشعر يتردد في ذهني:

طالت بنا الصحراء حتى خلتها
أبد الأبيد

ولا أدري من بعث هذا البيت من مدفن الذكريات؟ المهم ان قائله هو الشاعر علي الجارم الذي كان قد عبر هذه الصحراء مثلي بسيارة "نيرن" بدليل قوله:

وسفينتي "نيرن" بها ما في فؤادي
من وقود

ثم استولى علي النعاس، فأغلقت عيني ونحن في الرابعة صباحاً، ولما استيقظت في الصباح، رأيت الصحراء من جديد، وفي التاسعة اصبحنا نسير الى جانب سلسلة جبال جرداء ادركنا منها اننا نسير على تربة سورية، وبها انتهت الصحراء، ثم لاحت لنا "ابو الشامات" اول نقطة بعد الحدود السورية، وهبطنا هناك وسألنا عن الساعة فعلمنا انها الثامنة صباحاً وهكذا عشنا هذه الساعة مرتين! ولما تم تأشير جوازاتنا عدنا الى السيارة، فانبسط امامنا طريق شاعري اخضر تمتد على يمينه سلسلة طويلة جداً من الجبال. سوريا!! يا لها من جنة ساحرة، لقد امتلأت روحي برقتها وعذوبتها، الطريق من ابي الشامات الى دمشق يطول ساعة واحدة ولكنها ساعة تنفلت في دقائق بحساب الشعور، والذي يعبر هذه الساعة، يهرب من افعوان الزمن. ومررنا بعدة مدن صغيرة ثم بلغنا دمشق. دمشق باختصار جنة على الارض، تقوم المدينة بين جبال شاهقة تحف بها من جهتين وتمنحها مياهها الباردة. وشوارع دمشق لا تنبسط دائما ترتفع وتنحدر، وانت تسيرين في شارع، وترفعين راسك فترين فوقك على مسافة امتار شارعا آخر تسير فيه عشرات السيارات وهي مع ذلك مدينة كبيرة بعماراتها الحديثة العالية وبنوكها وشركاتها ودوائرها الحكومية، وهذا كله شيء لا نراه في شمالنا الحبيب الذي ما زالت طبيعته فطرية دونما تنظيم. لا شك ان يد الانسان تصنع المعجزات، ودمشق خير دليل على ذلك، فهذه المدينة قد مستها عصا ساحر رفيع الذوق فحولتها الى هذه الروعة. باختصار دمشق فردوس شاعري الجمال.

الجبال في سوريا ولبنان عموما شاهقة الى حد مخيف وهي تختلف عن جبالنا في الموصل، الا ان جبال حاج عمران مثلها في العلو لكنها أي الحاج عمران أغزر مياهاً واخصب تربة واكثر فاكهة من جبال سوريا ولبنان، ومع ذلك فلبنان أجمل من شمال العراق، اذ يخيم الاهمال على جبالنا، مما يجعل الارتياح الكلي اليها مستحيلاً.

بلغنا دمشق في الحادية عشرة، وبقينا فيها نصف ساعة استبدلنا خلالها السيارة باخرى من سيارات الشركة تلائم الجبال، ومنذ غادرنا الشام ابتدأت في حياتي فترة رائعة، دمعت خلالها عيناي تأثراً بالجمال الآلهي الذي تفيض به هذه اليوتوبيا التي تقوم في الجبال.

وفي بلدة (دُمَر) بعد دمشق رأيت اشجار القوع بكثرة وسألت عنها فقيل لي انها اشجار "الحور" ويظهر ان هذا هو اسمها هنا، المهم انني تاثرت تأثراً شديداً، وحييتها كما أحيي صديقة قديمة.

وفي جبل (ميسلون) رأيت عين ماء ضحلة اضحكني اهتمام السكان بها. نحن في شمال العراق نسير ست ساعات كاملة بالسيارة على حافة واد تنحدر اليه شلالات مدوية من كل جبل نمرّ به، ولا احد يهتم بها، في حين يقيمون هنا فوق شيء، اسميه عين ماء تجوزاً، مقهى، ويبيعون الماء بالنقود، فيا لنا شعباً كسولاً لا تطربه مغنية الحيّ!!

اخيراً هبطنا الى سهل البقاع الساحر. هنا يعجز القلم عن الوصف. نحن الان في لبنان لا سوريا، وقد أشرت جوازاتنا في مخفر شرطة الحدود. طريق سهل البقاع تحف به اشجار الصنوبر والحور، وفهمت لماذا سمي "سهل البقاع" فهو اولاً سهل واسع جداً ومنبسط، يقوم بين سلسلتين من الجبال الشاهقة، ثم هو ذو بقاع تختلف كل بقعة منها بلونها وتربتها عن الاخرى، وتوجد فيه عدة مصايف اهمها "شتورة" بمفاهيمها الشاعرية، وبيوتها الصخرية ذات السقوف الحمراء، وبساتينها الخضراء، ويخترق سهل البقاع طريق ربما كان اجمل طريق شاهدته طيلة حياتي، بعد ذلك بدأنا نرتقي جبل (دار البيضا) الشاهق، فلاح لنا سهل البقاع اشبه بمدينة صغيرة. وبعد مصايف صغيرة اخرى رحنا نسير على مسافة وادٍ هائل العمق، اعمق مرات عديدة من وادي الموت تحت "العمادية"، وفي اعماق الوادي تقوم بلدة (برمانة). كم تمنيت ان تكونوا معي لتستمعوا بكل هذا الجمال.

ثم وصلنا (صوفر) المصيف الذي تتدرج بناياته الفخمة الحديثة فوق الجبال، ولاح لنا البحر من بعيد محفوفاً بالغيوم والضباب لبعده عنا، بعد ذلك بلغنا (بحمدون) وأظنه اكبر مصايف لبنان ومن أجملها، أشدها ازدحاماً بناياته الحديثة ذات الطبقات العديدة وفنادقه وحوانيته التجارية الخ، بعد ذلك وصلنا "عَاليَه" وهي مصيف كبير، شديد الازدحام ، وكل هذه المصايف فراديس ساحرة، والجبال فيها شاهقة بشكل مخيف وخطر، أنت قد رأيت جبال العراق وعشت فيها الا ان لبنان اروع من العراق عشرين مرة! وجمال الجبال هنا ينتمي الى صنف آخر غير جمال جبالنا في الشمال.

ولهذا يصعب عليك التخيل اخيراً بدأنا نهبط الى بيروت، ولاحت لنا المدينة القائمة على شاطئ البحر، وهبّ في وجوهنا هواء ساخن، بعد برودة الجبال. شوارع بيروت ضيقة وليس فيها شارع رئيسي وعماراتها عالية حديثة، والمهم أنني أحببتها إذ لاحت لي مدينة مثقفة تخيم عليها روح العلم.

وعند نزولنا الى بيروت خفق قلبي بحدة عندما رأيت البحر بعد طول حنيني اليه منذ طفولتي.. وقفت بنا السيارة في (الزيتونة) عند شاطئ البحر. وانطلقت وعبرت الشارع ووقفت عند السياج احدق في البحر الازرق الممتد الى ما لا نهاية، ثم نوديت للذهاب الى مقر : (Y.W.C.A في بيروت، وعند الوصول رأيت شيئاً مغرياً وجدت مكتبة كبيرة حافلة بالكتب قرب المقر، واطل عليّ من نوافذ المكتبة فيه، وقد بحثت عن اسم فريد الاطرش فلم اجده، بعد ذلك مررنا بقبر الجندي المجهول الكائن في الزيتونة على شاطئ البحر، تغطيه الأكاليل وتحفّ به حديقة، واتكأنا الى السياج ورحنا نحدق في البحر، ومرّت بنا سيارة الجمعية والتقطتنا لترتقي بنا الجبل الى المخيم، الان بدأنا نرتفع مغادرين بيروت، وكان امامنا ساعة كي نصل الى "ضهور الشوير" مصيفنا المقصود، ورحنا نصعد الى علو شاهق سيبلغ حين نصل الى "ضهور الشوير" ٥٦٠٠قدم فوق سطح البحر، وبدأنا نرتقي ونرتقي حتى اصبح البحر يبدو كأنه ضباب وارتفعنا في دروب حلزونية تسير الى اعلى ابداً كانها تنوي ان توصلنا الى السماء. وقد عمق الوادي عمقاً هائلاً لا يستطيع القلم ان يصوره. الآن اصبحنا أعلى من الغيوم كلها، وهي تحتنا تلفع المصايف كلها وتمتد على صورة رائعة، وسألت احدى الزميلات الى اين نصعد؟ انني اموت رعباً، فضحك السائق الماهر وقال: "انتظري لم يزل امامنا صعود" ، واندفعت السيارة من جديد الى اعلى فوق الغيوم، فبلغنا مصيف "بكفيا" الفاتن ببيوته الانيقة وفنادقه الفخمة، وبعد ذلك لم نعد نرى قعر الوادي فلا شيء الا الغيوم والضباب واصبح الجو بارداً رطباً فارتدينا المعاطف بعد حرارة بيروت. اخيراً بلغنا ضهور الشوير لكن السيارة بقيت مندفعة الى الامام الى أعلى، وحين بلغنا أعلى قمة في المصيف ارتقينا في ممر من اشجار الصنوبر أدى بنا الى خيامنا الكبيرة ووقفت السيارة اخيراً فارتقينا مشياً على الاقدام الى مخيمنا فوق الغيوم، في السماء، واستقر بنا المقام في المخيم في السادسة مساء، فعكفنا حقائبنا، ونعلق ملابسنا، والمخيم منظم جداً ومريح الى حد يروقني، فالخيام من النوع الكبير ذي السقف العالي، بحيث نستطيع ان نمشي ونتحرك كما نشاء وفي خيمة كل منا ثماني زميلات منهن اميمة وهند ورمزية وأراكسي وروز الخ والخيمة مجهزة بالكهرباء وفيها دولابان واسعان علقنا فيهما ملابسنا. ومصيف ضهور الشوير أجمل مصايف لبنان، والمناظر الطبيعية التي تنبسط امام الساكن فيه اروع من اية مناظر، فالبحر يبدو من بعيد، وفوقه تضرب الشمس كل مساء، والوديان المحيطة بقمتنا مكسوة باشجار الصنوبر.

وفي الليل يحدق المرء، فيرى الجبال مرصعة بشبه نجوم، هي اضواء المصايف الشاعرية العديدة التي تحيط بجنتنا. في الليل يموت الانسان برداً هنا، وما يكاد الظلام يهبط حتى يصبح الجو رطباً بحيث يكاد كل شيء يبتل ونضطر الى الاختباء داخل الخيمة من شدة البرد مع ارتداء كل ما لدينا من ملابس الشتاء، بل حتى نضطر الى ان نلف اجسامنا بالبطانيات، ونبقى نرتجف. احدى الزميلات قالت انها لو كانت تعلم ان الحياة في ضهور الشوير شتاء دائماً لما حضرت الى لبنان اطلاقاً، وقد استفدت من بطانياتي الاربع واستعملتها جميعاً من اجل الحصول على الدفء وسأطلب الى المخيم تجهيزي ببطانية اخرى، اليوم، وبسبب الرطوبة هو علو المصيف ثم ان الجو هنا غائم في اغلب الاحيان، اننا نعيش في الغيوم تماماً الغيوم يسمونها هنا (الغطيطة).

صباح اليوم استيقظت مصابة بصداع خفيف على اثر السفرة الطويلة، فنصحتني "المراقبة" ان انام حالاً، فجلست في الفراش اكتب اليكم هذه الرسالة الطويلة، وجاءتني المراقبة بمقياس الحرارة فظهر ان حرارتي طبيعية تماماً.

اليوم ذهبت كثير من الزميلات الى بيروت لشراء بعض الحاجيات ولم اذهب انا لانني آثر ان احتفظ بنصائح والدتي ما دمت متعبة، وعليّ ان ارتاح، بجانبي الآن "اراكسي" تكتب الى اسرتها كما افعل انا. الصداع عندي قد خفّ، ومنذ دقائق خرجت فسرت على حافة غابة الصنوبر، وفي ريعان الظهيرة، وتحت الشمس لكن الهواء القارس أعادني بانتظام الى قواعدي في الخيمة!

هذه الرسالة جعلتها طويلة لأنها اول رسالة، ولن تكون رسائلي التالية بهذا الطول، فأنا اثري ان اطالع واكتب قصائد ومذكرات. لاحظوا انني لم اكتب حتى الآن يومياتي ولذلك أرجو الاحتفاظ برسائلي حتى أعود.

بدأت بقراءة مسرحية الأشباح لابسن بالانجليزية ارجو تبليغ تحياتي الى امي وأبي وأخوتي جميعاً وسائر الاقارب والاصدقاء.

المخلصة: نازك الملائكة

استدراك: اكتبي اليّ يا احسان حالاً رسالة طويلة، حدثيني فيها بألف شيء عنكم جميعاً، هل تسلمتم ؟ ديواني (شظايا ورماد) احفظوه كما اتفقنا ولا تطلعوا عليه أحداً، لا تنسي انك (وكيلة أعمالي) كلها في غيابي.

ضهور الشوير ٤/٧/١٩٤٩

> .هل تسلّمتم ديواني (شظايا ورماد)؟احفظوه كما اتفقنا ولا تطلعوا عليه احداً.

> .نام الكل عدا أختك التي وجدت في فكرة عبورها الصحراء اول مرة شيئاً يستأهل السهر وخفقان القلب من شدة الحماس.

> .كل البقاع ذو بقاع تختلف كل بقعة منها بلونها وتربتها عن الاخرى و (شتورة) اهم مصايفها.

> .انا نعيش في الغيوم تماماً، الغيوم يسمونها هنا (الغطيطة).

> .شوارع بيروت ضيقة وليس فيها شارع رئيسي وعماراتها عالية حديثة والمهم انني احببتها اذ لاحت لي مدينة مثقفة تخيم عليها روح العلم.